مقالات

مسيرة الإنتاج الأدبي المحلي وواقع القراءة

د. حبيب بولس

مقدمة:

هل هنالك أزمة قراءة محلية؟

سؤال يستمدّ شــرعيته من عدم رواج الكتاب المحلي اليوم كما يجب، إنه الســؤال الساخن الذي يُطرح دائما في كل ندوة حول أدبنــا المحلي أو في كل حديث يدور بين الأدباء حول انتشــار كتابنا المحلي الذي يلقى الجهد الكبير كي ينتشــر ويوزع ماديا ومعنويا.

وسؤال آخر ينبع من خاصرة هذا السؤال، هل الأزمة أزمة محلية خاصة؟ أم إنها أزمة عربية عامة؟!

كي نجيــب عن هذين الســؤالين بجدية وموضوعيــة، علينا أن نفحــص عددا من الأمور المهمة، وذلك لأن الكتاب، أي كتاب، لا يقف في الساحة لوحده اليوم، بل هناك عدد من الأشياء تتحداه وتتنافس معه وتحاول أن تقلّل من دوره، وهذه الأشــياء ليســت أقل قيمة من الكتاب. كما أن هناك عددا من الجهات التي يجب أن نرى إليها لما لها من علاقة مع الكتاب مهما كان نوعه.

من الســهل جدا لدى طرح هذا الســؤال على الكاتب أن يجيب بـ"نعم، هنالك أزمة قراءة". وبمثل هذه الإجابة الســريعة يرفع الكاتب المسؤولية عنه ليلقيها على القارئ، ولكن هذه الإجابة لا تقنع القارئ كما أنها لا تقنع أحدا إذا لم تكن مدعومة بالإثباتات والبراهين. ولعــلّ الكاتب يملك منها بعضها. فحين يحدثك مثلا عن هذه الأزمة، يقول: "أنا أطبع خمسمائة نسخة من كتابي فلا أبيع منه سوى العدد اليسير، أليس هذا كافيا للتدليل على وجود هذه الأزمة اللعينة". ومن الطبيعي، وهو يجيب عن هذا السؤال، أن ينسى أو يتناسى الحديث عن مستوى الكتاب الذي طبعه أو حاول نشره. وهل يستحق هذا الكتاب اهتمام القارئ؟ وهل فيه ما يجذبه فيدفعه الى التفتيش عنه على رفوف المكتبات.

وإذا تركنــا الكاتب يدافع عن كتابه، وهذا حقه خاصة في غياب حركة نقدية، وحاولنا بدورنا التصدي لهذه الإشــكالية، نقول بكل موضوعية ومســؤولية ومأســاوية في آن معا: نعــم هنالك أزمة قراءة عندنا، ولكنها ليست أزمة خاصة محلية بل هي أزمة عربية عامة. ولإثبات ذلك عربيا، لا نحتاج إلى بذل جهد كثير أو القيام بإحصائيات رياضية نسبية، بل يكفينا ما نسمعه أو ما يصل إلينا عبر الصحف العربية من مرارة تنبع من أكبر كتابنا وشعرائنا في العالــم العربــي حين يتحدثــون عن هذه الأزمــة. فعالم عربي تعــداده يفوق الثلاثمائة مليون نســمة لا يطبــع فيه لكاتب أو لشــاعر معروف أكثر من عشــرة آلاف نســخة، هذا في أحسن الأحوال، إذن كيف ســيكون بخير؟! وحين يقارن الأديب العربي بينــه وبيــن الوضع فــي العالم الغربي تــزداد المشــكلة حدّة ومســؤولية ويطالعنا التســاؤل، هل نحن شــعب لا يعرف قيمة القراءة؟! أو، هل نحن أقلّ شأنًا ككتّاب وكمبدعين؟ أو هل نحن شعب يرفض الثقافة والتفكير؟! الإجابة عن ذلك هي، لا العكس هــو الصحيح. فنحن شــعب عريق له أصوله وجــذوره وأصالته المعرفية الثقافية العلمية. وهذه جميعها تضرب عميقا في رحم التاريخ ولكن، المســألة ليست كذلك. المشكلة تكمن اليوم في أســباب كثيرة متشــعبة ذات تشــظيات وتنويعات كثيرة تطال

الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وليس هنا مجال الحديث عن مأساة العالم العربي ولا عما يعانيه الكاتب العربي. ولكن، إذا كان العالم العربي يعاني من أزمة كهذه، هل يجب أن تنسحب هذه الأزمة علينا، أيضاً؟! خاصة ونحن نعيش في ظروف تختلف في الكثير من نواحيها عن العالم العربي.

واقع كتابنا المحلي

ليس بالضرورة أن يكون وضع الكتاب عندنا هو نفس وضعه في العالم العربي رغم التأثر الموجود الذي لا يمكن إنكار وجوده. ومرة أخرى، نعود إلى نفس المساءلة التي طرحناها بهدف محاولة الإجابة عنها. قلنا، أن هناك فعلا أزمة قراءة محلية، ولكن ما الأسباب التي أدت إلى ذلك وما زالت تفعل فعلها؟! وكيف التغلّب عليها والارتقاء بهذا الموضوع المهم، بل الأهم إلى مصاف المجتمعات الراقية؟!

قلنا إن جوانب متعددة لها علاقة بهذه الأزمة وكي نعرف علاج هذه المشكلة علينا أن نعاين الأسباب وأن نحددها وذلك من باب "مَن عرف الداء هان عليه وصف الدواء". ونحن في غمرة الحديث وحماسته، يجب علينا أن نحذر أنه ما من وصفة جاهزة يُمكن أن تنشلنا بين ليلة وضحاها من هذا المستنقع الآسن، وما من دواء سريع يشفي من هذا الوضع الإشكالي، مهما بلغت دقة الوصفة وعلمية تركيب الدواء. ما نقوم به هو مجرّد محاولة هدفها التوصيف ومن ثم الاقتراب والملامسة، بل هي إلى المغامرة أميل والى التجريب والمراهنة اقرب.

أبدأ أولا بمستوى الكتاب المحلي. والسؤال هو: هل يستطيع كتابنا المحلي أن يقف وأن يصمد اليوم أمام ما ينشره في العالم العربي من حيث مستواه وإخراجه، خاصة إذا كان الكتاب العربي عامة هو بذاته يعاني نفس الأزمة، أيضاً؟ حقيقة إنها قضية ليست سهلة ومقارنة مع ما ينشر اليوم في العالم العربي، إضافة إلى سهولة الوصول إلى ما ينشر، أيضاً، يصبح كتابنا في أزمة. ونحن إذا تفحّصنا الأمر بدقة نجد أن الكتاب العربي ما زال يحتل مكان الصدارة في عالمنا الثقافي المعرفي ولذلك مرجعيته، وهو نابع عندي من جملة أمور تحتاج إلى الوقوف عندها بأناة وصبر.

أمور تخترق مسيرة أدبنا منذ بدايته أو استمراريته بعد القطيعة وحتى اليوم.

أهم هذه الأمور من الناحية التاريخية هي أن أدبنا العربي المحلي، مهما يتميز به من خصوصيات، هو جزء لا يتجزأ من الأدب العربي عامة. فأدبنا ليس نبتا شيطانيا منقطعا عن جذوره بل هو رافد من روافد عديدة تشكل هذا النهر الكبير الهادر الذي هو ثقافتنا العربية. ولأنه كذلك، فهو مؤثث بالكثير من المواضيع والبُنى والأشكال التي استمدّها من هذا الكمّ الهائل بحيث نجد أن الكثير- رغم فرادة التجربة - يدور على نفس الثيمات والمحاور. وإذا أضفنا أننا هنا، خاصة جيل ما قبل عام (1948) وجيل ما بعده بقليل، تربّى على هذا الأدب العربي دراسة ومطالعةً حتى صار هذا الجيل يحمل الأفكار ذاتها ويستمتع بقراءة أسماء معينة، درج على قلمها وأسلوبها المتميز في المجلات والكتب في حينه، نصل إلى نتيجة تقول إنه بات من الصعب أن يغير هذا الجيل اتجاهه وأن ينزاح عما ألفه ليعتاد أسلوبا آخر. فرغم اقترابه من همومه اليومية كان لا يزال يجرّب نفسه على مدارج الأدب الراسخ لغةً وأسلوبًا. أضف إلى ذلك شحّ هذا الإنتاج المحلي في حينه بسبب ضغط السلطة ومحاولتها إضعاف الصلة وتغييبها بينه وبين ما كان ينشر في العالم العربي. فجيل درج على قراءة أدب معين لا قراءة هاوية إنما قراءة ملزمة نابعة عن ضرورة مناهج التعليم التي غاب عنها الإنتاج المحلي على ندرته ونضارته غيابا مقصودا متعمدا، كان من الصعب عليه أن يتقبل أدبنا المحلي الذي كان يتلمس خطواته ويشقّ طريقه بعناء في عتمة ليل حالك في ظروف قاسية. ثم كان من الصعب على هذا الجيل أن يقتنع بأن الكتاب المحلي يصل إلى مستوى الكتاب العربي الآخر خاصة وإنه يرى إلى ما في هذا الكتاب من تقليد، ولذلك أعرض عنه، وهو إن قرأه نفر قليل، كانت قراءته من باب التشجيع ليس إلا. تضاف إلى ذلك المشكلتان النفسية والانتمائية الحساسة اللتان لعبتا الدور الكبير في حينه في تحديد شهرة هذا الكتاب أو ذاك. فنظرا للظروف التي عشناها كان النظر إلى قيمة هذا الكتاب المحلي تحدّد على ضوء انتماء صاحبه الطائفي/ الاجتماعي/ والأهم الحزبي. وكان الفرز في حينه صارما قاسيا. فحتى الكتّاب الذين "وقفوا على الشاطئ" أسقط أدبهم من الحساب رغم ما كان فيه من جمالية لأن الظروف اقتضت شيئا آخر. فقد اقتضت أدبا ملتزما مسيّسا مُؤدلجا يميل إلى المنبرية والخطابية والمباشرة - أدبا يقارب الحدث الساخن ويمتح منه. أدب كهذا، مهما نظرنا إليه بمنظار الحب والتشجيع، يبقى أدبا آنيا هشّا في معظمه، كان من الصعب له أن يقف ويشمخ متحدّيا ما ينشر في العالم العربي على الصعيدين الأدبي والفكري وذلك لأنه، على مباشرته، كان سريع الانزلاق نحو السطحية والكليشيه الجاهز المنفّر، طبعاً إلا أقلّه كي يرسخ كان عليه أن يعرف كيف يغوص في المقلاة وكيف يتعمّد في جرن التجربة وكيف بالتالي ينتشل نفسه وأدبيته من لعنة المباشرة والسطحية. وفعلا، إذا عدنا إلى البدايات في الخمسينيات والستينيات لوجدنا أن عددا قليلا جدا من الأسماء حافظت أو استطاعت أن تحافظ على نفسها، وأن تخترق الحواجز وأن ترسخ في ذهن الجماهير

القارئة بينما الكثير سقط مع بداية المشوار أو في وسطه. وشيء آخر نضيفه إلى هذه الخانة وهو قضية كون المبدع "ابن بلد". فهل ابن البلد الذي نعرفه عن كثب اجتماعيا وأخلاقيا يستطيع أن يكتب وبنفس المستوى ما يكتبه كاتب سوري/ لبناني/مصري لا نعرفه؟.! إنه نوع من الدفاع عن الذات. فكون القارئ المحلي مقصِّراً لا يجيد التعبير عن ذاته أسقط هذا التعبير، أيضا، على جاره أو على ابن بلده أو على معرفته. وهذه ظاهرة ما زلنا نعاني منها إلى اليوم. وذلك، لأننا لم نعرف كيف نتخلص من عقدة أن الغريب دائما هو الأفضل. زِد على ذلك علاقة المبدعين ببعضهم تقوم على التنافس والتناحر والتنافر حتى نكاد ألاّ نعثر على مبدع يحبّ مبدعا آخر أو يشجّع إنتاجه ولو كان يعترف بينه وبين نفسه بقيمته.

وبعد، هل نستطيع أن نقول إن الكتاب المحلي في حينه أي بالنسبة إلى جيل ما قبل (1948) أو جيل ما بعده، كان باستطاعته أن ينافس الكتاب العربي عموما؟! أو أن يقف على نفس المستوى؟! ربما كان بإمكانه ذلك لو لقي الترحاب والتشجيع الكافيين. وهنا، تحتّم الموضوعية أن أشيد بدور مجلة "الجديد" وصحيفة "الاتحاد" ومجلة "الغد" في تشجيع مثل هذه الكتب. فقد عملت، وبكثير من التجاوزات، على تقديم هذا الوليد الغضّ في أحلك الفترات. ولكن رغم هذا الدور الذي لعبته في حينه، ظلّ طغيان الكتاب العربي على قلة وصوله إلى القارئ يلعب الدور الأساس والمركزي في حياتنا الأدبية والفكرية. فلم يكن بوسع كتابنا المحلي منافسته. هذا، عدا أن عددا كبيرا من الكتب التي صدرت في حينه لم تصل إلى المستوى اللائق والمطلوب. وأنا أذكر في بداية الستينيات تلك الكتب التي تلقفناها كالخبز والتي صدرت عن دار النشر العربي بشكل مقصود، والتي كادت أن تقضي على الإنتاج المحلي وذلك، لأننا كنا نقارن هذا الإنتاج بإنتاجنا مغفلين كون كتّاب هذه الكتب هم أصحاب شهرة عالمية واسعة بينما كتابنا كانوا بعد أغصان غضّة على شجرة الإبداع. أقصد كتب طه حسين ومحفوظ وتيمور والشرقاوي وغيرهم. وبحكم العلاقة الحميمة التي جمعت بين الحزب الشيوعي الإسرائيلي في حينه مع الاتحاد السوفييتي، تم نقل العديد من أمهات الكتب السوفييتيه إلينا تلك الكتب التي غمرت السوق لأنها تجاوبت مع ظروف المرحلة السياسية في حينه، والتي شكلت نموذجا لكتابنا هنا، أعني كتب تشيخوف وتولستوي وغوركي ودويستوفسكي وغيرهم الكثير. وهي كتب ذات رؤى تقدمية ثورية وأبعاد اجتماعية وسياسية رائعة. هذا عدا ما قدمته الجامعات لطلابها من كتب مترجمة. فمع تغيّب الكتاب الفلسطيني ومع هذا المد من الكتب العربية والسوفييتية المترجمة التي تربى عليها الجيل الذي نتحدث عنه والمواد التي درسها في كتبه التعليمية ومناهجه والتي شكّلت بالنسبة اليه المثال، أضحى الكتاب المحلي، على قلته وندرته ورغم فرادة تجربته وخصوصيتها، كتابا ضئيلا لا يرتقي إلى المستوى المطلوب. كما أضحى عاجزا عن منافسة هذه الكتب والروائع بطبيعة الحال. وبعد، هل هناك أزمة قراءة؟ في حينه نعم كانت هناك أزمة قراءة للإنتاج المحلي تنبع، كما بيّنا، من عدم صمود هذا الإنتاج المحلي أمام الكتب الأخرى من حيث المستوى. ولكن، هل ما زالت هذه الأزمة مستمرة رغم التطوّر الذي حدث؟

واقع الأدب المحلي

المتتبع للحركة الأدبية المحلية يلحظ أن نشوة ما أصابت الأدب المحلي مع بداية الستينات وأواسطها، سببها الظروف السياسية. ففي حينه، نشأت أقلام جادة شابة واعدة راحت تثبت أسماءها على صفحات المجلات والصحف المحلية في الشعر والنثر والنقد والفكر. وكان لصحف الحزب الشيوعي دور كبير في إبراز هذه الأسماء، كما كان دور آخر لصحيفة "اليوم" ومن ثم "الأنباء" و "حقيقة الأمر" و "الفجر" و "المرصاد" في فتح صفحات أدبية لأقلام محلية شابة كثيرة. بعض هذه الاسماء نال شهرة محلية كبيرة، وقد تم نقل انتاج هذا البعض إلى العالمين العربي والغربي، وذلك لأن الأدب المحلي بدأ يلقى اهتماما كبيرا في تلك الفترة. وبسبب التعاطف مع القضية المحلية فلسطينيا وعربيا، احترم العالم العربي معظم ما كان ينشر عندنا في حينه، بل كتبت حوله بعض الاقلام المقالات النقدية الاستعراضية التعريفية. وقد رصد نفر على قلته أدبنا المحلي وعاينه ودرسه ونشر كتبا عنه. ولكن بالرغم من هذا الانتشار الواسع والشهرة تحتم علينا الموضوعية أن نقول: أن التقريظ الكبير الذي ناله أدبنا في الخارج لم يكن نابعا عن موضوعية علمية بقدر ما كان نابعا عن حب وتعاطف ودهشة. وقد عبر عن ذلك في حينه شاعرنا الكبير محمود درويش حين أطلق جملته المشهورة "أنقذونا من هذا الحب القاسي".

وهكذا، نعود الى المساءلة التي كنا قد طرحناها في البداية، هل مستوى الكتاب العربي المحلي تحسن في هذه الفترة أم ظلّ يلهث وراء الكتاب العربي عموما؟

وللحقيقة أقول: ان المستوى تحسن وتكمن وراء ذلك عوامل كثيرة، ليس هنا المجال لذكرها كلها. حين أقول "المستوى تحسن" أعني أن المواضيع بدأت تشوق القارئ بعد أن كانت حيية منفرة أحيانا والأسلوب ارتقى إلى مستوى لا بأس به. ولكن، هذا كله كان عند البعض القليل وليس عند الغالبية، فالغالبية في حينه غرقت في التقليد والجري وراء الكتاب العربي دون طائل، الأمر الذي أدى فيما بعد إلى توقف هؤلاء عن الكتابة.

الكتاب المحلي إذن آخذ في الارتقاء مضمونا وشكلا، وعلى قلة

ما كان ينشــر من كتب في حينه، أقبــل الناس على قراءته، وقد ســاهمت النــدوات والمهرجانات التي أقيمت لهــذا الأدب في الستينيات في الدعاية والترويج له خاصة مهرجانات كفر ياسيف والناصــرة. وهكــذا راح الإنتاج المحلي يلعــب دورا رياديا لدى الجماهير العربية في إسرائيل، الأمر الذي رفع من كرامة الكاتب وحفّــزه على المزيد من العطاء والتقــدم والتجريب. ولكن رغم ثبات هذا الأدب، وبعد تجربته السياسية، دخل تجربة مرة خاصة بعد نكســة حزيران (1967)، وذلك بسبب الانفتاح الكبير الذي حصــل عندنا على العالم العربي. وأعني ذلك التهافت "المبارك" من المتعلمين والمثقفين في حينه على الكتب العربية الوافدة من مصر وســوريا ولبنان والمغرب العربي، تلك الكتب التي كنا محروميــن منها مــدة طويلة الزمن. وعاد المــدّ العربي الفكري والأدبــي من خلال هذه الكتب ليلعب دوره الســابق في زيادة القراءة عندنا. إذ بعد قطيعة دامت عشــرين عاما تقريبا مع كل ما كان ينشر في العالم العربي ومع تغييب متعمد للفكر والأدب العربيين، عاد هذا الأدب ليحتل مكان الصدارة. وكان على الأدب المحلي العربــي أن يجاهد كثيرا كي يصل بكتابه إلى مســتوى الكتاب العربي الذي أصبح متيسرا. وفعلا، بدأنا نشهد في أواخر الســتينات منافســة كبيرة بين ما كان ينشر عندنا وما كان ينشر هناك. ولّدت هذه المنافسة في البداية رهبة لدى كتّابنا، ولكنها رهبة سرعان ما بدأت تنقشع، فانطلق كتابنا بعدها يمتحون من هــذا المناخ الفكــري والأدبي الجديد والخصــب وقد أثرى هذا الانفتاح أدبهم وعالمهم الفكري وأغناه وأخصبه ورفع مســتواه. وصارت تكاليف نشــر الكتب أقل من الســابق وعملية التوزيع أســهل. وفُتحــت آفاق كثيرة ومجــالات متنوعة لانتشــار القلم المحلي، ووصلت كتاباتنا إلى العالم العربي عبر الضفة والقطاع. لقد شــهدت ســنوات الســبعين هبة أدبية وفكريــة محمودة، وتحسّــنا في الإنتاج ملحوظا. وقد تنبه إلى ذلك عدد من الأدباء والمثقفيــن فأقاموا دور نشــر كرّســت جلّ همها لنشــر الأدب والفكر المحليين كمكتبة صلاح الدين في القدس وكدار عربسك في حيفا وكالأســوار في عكا. ودفعت دور النشــر هذه بالكتاب المحلــي إلى أمام، فازداد القــراء وازداد الطلب. وهكذا نجد أن عــام (1967) ومــا تلاه ولّد في البداية رهبــة كادت تكون مانعا لدى الكاتب المحلي لأنه تهيّب المنافسة في البداية ولكنه بعد ذلك صــار خطوة مباركة لــلأدب المحلي حيث انطلــق أدباؤنا مستفيدين من العالم العربي ومحسّنين أدواتهم ليصمدوا أمامه. ومــرة أخرى، أنوّه بأن هذا الــكلام لا ينطبق على جميع الكتاب عندنــا بل على بعضهــم، أي على هــؤلاء الذين تحــدوا وقبلوا المنافســة فصمــدوا بهــا وانطلقــوا مــن الضيق إلــى الرحابة والشمولية. وهكذا تحسّنت، أيضا، النظرة إلى أدبنا فصارت نظرة موضوعية وصــار المعيار إما أن يصمــد أو لا يصمد هذا الأدب أمــام التحديات الكبيــرة. وقد صمد العديد مــن كتبنا المحلية. كذلك، لاقت هذه الكتب الاهتمام والشــهرة بحيث أعيد طبعها مرات في العالم العربي وترجم بعضها إلى اللغات الأوروبية.

ومما زاد في شــهرة الكتاب المحلي وإقبــال الناس على قراءته محليــا، أمــران هامان: الأول ـ ارتفاع نســبة المثقفين وانتشــار الوعي والاهتمام بكل ما هو محلي أصيل تبعا لذلك. والثاني ـ إن هذه الكتب والمنشورات المحلية كانت فارسة الميدان الوحيدة في حينه لأن وســائل الإعلام المحلية – المنافس الكبير- لم تكن قد دخلت الســاحة بعد، وذلك لأن معظــم قرانا كانت محرومة من كل مظاهر التمدّن حتى أواســط السبعينات تقريبا. وهكذا إذا، لم يكن للكتاب المحلي ما ينافســه ويشــلّ حركته وانتشاره وقراءته لســنوات سوى الكتاب العربي، وحتى هذا لم يعد ذلك المنافس الخطير كما كان من قبل كما أسلفنا.

بنــاءً على مــا تقدّم، نصل إلــى نتيجة تقول: إن مــا كان يعانيه الكتــاب المحلــي من حيث مســتواه وإعراض القــارئ عنه في الخمســينيات قد زال وتراجع في السبعينيات، لا بل حصل هذا الكتاب على إقبال الناس وتحمسّــهم لــه. وهكذا يزول مع هذا الإقبــال على القراءة العائق الأول مــن العوائق التي لعبت دورا مهما في قضية القراءة.

والســؤال الذي يطالعنا الآن، وهل بزوال قضية مســتوى الكتاب المحلي زالت أزمة القراءة محليا؟ حقيقة نقول: لا ، بل بالعكس، فبعد الهبة المحمودة التي شــهدتها ســنوات الســبعين أخذت القــراءة تنحســر تدريجيا خاصة القــراءة المحليــة. ومع بداية الثمانينيات ووصولا إلى التســعينيات بدأت الأزمة تتفاقم حتى صارت اليوم الشغل الشاغل للأدباء، وذلك يعود إلى أسباب كثيرة سنحاول الوقوف عندها حسب أهميتها.

الإعلام والقراءة

أول عامل نشــير إليــه في غمار هذه المســاءلة في لعب دور التهميش لعملية القراءة هي وسائل الإعلام المرئية. من المعروف أن قرانــا العربية قد أخذت تتمكنن بعد أواســط الســبعينيات تقريبا. وقد ســمحت هذه المكننة بطبيعة الحال بدخول وسائل الإعلام المرئية إلى كل بيت، وككل شيء جديد ومدهش انجذب النــاس الــى هذه الوســائل انجذابا مذهلا حيث ســيطرت على الغالبيــة العظمى منــا ببرامجهــا الخفيفة المتنوعــة الترفيهية الثقافية والسياســية وغيرهــا. ومع تطور الحيــاة تطورت هذه الوســائل أكثر فأكثر، فدخل إلى جانبها "الفيديو" الذي استحوذ هــو الآخر على جزء كبير مــن اهتمام الناس ثــم تلته محطات "الكوابل" الكثيرة التي راحت تتنافس على جذب المشاهد فيما بينهــا. كل ذلك كان على حســاب القراءة وذلك لأن وقت الفراغ لدى القــارئ راح يتضاءل تدريجيا ويدخل إليه منافســون ألداء

للكتاب. لا بــل لم يعد هناك وقت للقــراءة وذلك لأنها تتطلب جهدا فكريا وكدا ذهنيا على خلاف البرامج المُتلفزة أو المسجّلة التي يســتطيع المشــاهد رؤيتها وهو مرتاح. أضف إلى ذلك، أن الوسائل التكنولوجية الأخرى دخلت الميدان، أيضا، للتنافس على البقية الباقية من وقت الفراغ. وأهم هذه الوسائل كان الحاسوب الذي بدأ الوعي به في الســنوات القليلــة الماضية، والذي صار يحتــلّ اليوم مكان الصدارة لدى الجيل الشــاب وذلك لأنه يوفّر لهم المعلومات بســهولة وبتكاليف قليلة. وهكذا، نجد أنه رغم تزايد عدد المتعلمين الأمر الذي كان من المفروض أن يؤدي إلى تزايد مطّرد للقــراءة وجدنا العكس تماما. فقــد دخلت القراءة منافســة شديدة مع هذه الوســائل وكانت هي الخاسرة لأنها لا تملك الجذب المريح الذي تملكه تلك الوســائل. صحيح أن هذه الأزمــة ليســت أزمة محلية إنمــا هي أزمة عالميــة، ولكنها هنا لعبت دورا شرســا في إبعاد القارئ عــن الكتاب وإلهائه ببرامج قللت من وقت فراغه بحيث نكاد اليوم لا نجد إلا قلة قليلة من الذين يواصلون القراءة وذلك لوعيهــم بأهميتها وفوائدها. وقد قلت هنــا وأعني لدينا، لأن المنافســة عندنا جديــدة لمّا يصل عمرهــا إلى عقد ونصف تقريبا، لذلك هــي لم تفقد لغاية الآن بريقهــا لدى الناس والقراء خاصة الذيــن بدأت قراءتهم تتناقص هــذه الأيام حتى صــارت تقتصر على قــراءة الصحيفة المحلية وربما على عناوينها فقط.

إذن التنافس الشــديد بين القراءة ووســائل الإعلام المرئية بكل تشعّباتها، والتكنولوجيا بكل إمكانياتها، هذا التنافس لم يكن في صالــح القراءة، وربما مــع ازدياد الوعي والتجارب ســيأتي ذلك اليوم الذي ســيجد فيه الإنســان العربي أن القــراءة هي الأهم. ومثلما وصل الإنســان الغربي إلى هــذه الحقيقة نأمل أن نصل نحن إليها قريبا.

إذن القراءة في أزمة لا بل في أزمة شــديدة اليوم طالما إنها لم تســتطع لغاية الآن التغلب على أشدّ منافسيها ضراوة. لكن، هل الأزمة محصورة بوســائل الإعلام المرئيــة والتكنولوجيا الحديثة فقط؟! أم إن هناك أسبابا أخرى لها؟!

الوقت والقراءة

حيــن تطــرح قضية أزمة القــراءة عندنــا على شــبابنا المتعلم والمثقف، يأتي الجواب بتلقائية وهل هناك وقت للقراءة؟! هذه الإجابــة التلقائية فيها الكثير من التهرب بقدر ما فيها الكثير من الصــدق. صدقها نابــع من كون هؤلاء الشــباب فعلا لا يملكون الوقــت الكافــي لقراءة أخرى غيــر قراءاتهــم المتخصصة، فهم يعيشون اليوم - كل في مجال عمله وتخصصه - في عصر متقلب علميــا، ســريع الخطى فــي تنقله بيــن الحقائــق العلمية على اختلافها وذلك نابع من التطــور التكنولوجي والإمكانيات الكثيرة المتاحة اليوم للبحث والتجارب، هذا التقلب أو لنقل هذا التقدم السريع، صار لا يســمح لهذا المتخصص أن يقرأ شيئا خارجا عن مجال عمله وحتى الكتــب أو المجلات المتخصصة على كثرتها، لم يعد باستطاعته مواكبتها جميعا، فلكل موضوع أدبياته وهذه الأدبيات كثيرة ومتشعبة في آن معا، بحيث لا تتيح الفرصة لهذا المتعلم أن يمد نظره إلى غيرها أو أن يقرأ ويتابع ما ينشــر في المجــلات الأخرى خاصــة الأدبية. زِد على ذلــك أن هذا التقدم العلمــي الذي حصر شــبابنا المتعلم في خانــة التخصصات راح يضيق عليهــم المجال أكثر فأكثر حتى صــار للتخصص تخصص أضيــق وأضيق، وهكــذا حتى أصبحنــا اليوم نجــد قطيعة بين المتعلميــن وبين ما ينشــر لدرجة أن الواحــد منهم صار يصاب بالدهشة وبالذهول حين يسمع أن جاره أديب أو مفكر له شأنه يقــرأه الكثيرون في العالم العربي، أو أن أدبه أو إنتاجه الفكري صار يــدرّس وتكتــب عنه الدراســات والأبحاث. وبســبب هذا التقصيــر غير المتعمد صار هذا المتعلم المتخصص حين نضعه وجها لوجه أمام هذه القضية - وهي قضية على جانب كبير من الأهمية لما فيها من خصائص وطنية وقومية - يدافع عن نفســه بشــتى الحجج، وطبعا أســهل هذه الحجج الادعاء بأن ما يكتب عندنا لا يســتحق القراءة، فهو هزيل فــارغ مقارنة مع ما يكتب فــي الغرب. وإذا تفحصّنا الأمر جيدا نجد أنه لا يقرأ ما عندنا ولا مــا عند الغير حتى تجوز له مثل هذه المقارنة. وكل ما في الأمر أنه يسقط تقصيره على الغير بدلا من التأشير على العيب بجرأة وعلاجه.

هــذا بالإضافــة إلى إن الابتعاد عما ينشــر محليــا وعربيا جعل البعض محصورا في نطاق الأدب الذي درسه أثناء مراحل تعلمه المختلفة، الأمر الذي جعله بالتالي لعدم مواكبته للمستجدات لا يستســيغ ما يكتب اليوم لأنه شــتان بين ما كُتب في الأمس وما يكتب اليوم. فالأدب، كما يعرف الجميع، كائن حي يتطور وينمو مع تطور المجتمعات. هذا التطور الأدبي/الفكري غير المواكب جعــل الكثير يغلقون الباب علــى ما يعرفون ويكتفون به بحجة أنهــم لا يفهمــون ما يكتب حديثــا. فهم يريدون من الشــعراء والكتاب أن يظلوا أســرى القديــم، أن يظلّوا يدورون في أقفاص مسيّجة، أســرى الخطابية والمباشرة والشعاراتية الجعجاعة التي اعتــادوا عليها في مرحلة معينة من مراحــل أدبنا العربي عامة والمحلي خاصــة. وهم يغضّون النظر عن أنــه صار على الأدب اليــوم أن يخلع أثوابه القديمة ليكتســي بثــوب جديد هو ثوب الحداثة المتطورة المســتمدة من التطور الفكري والأدبي العام في الغرب وعندنا.

مضون الأدب المحلي والقراءة

قضية أخرى تنبــع من خاصرة هذه القضية الخاصة وتهمنا كثيرا في هذه المســاءلة، وتحتم علينا لأهميتها أن نقف إزاءها قليلا لنفحصهــا هي: هل حقيقة هو الادعاء القائل أن ما ينشــر اليوم عندنــا لم يعــد يجذب القــارئ ويغريه كما كان الأمر ســابقا؟! بمعنــى هــل حقيقة أن ما ينشــر قد ابتعــد عما يهــمّ القارئ ويشوقه؟! تستمد هذه الأســئلة شرعيتها من كون أدبنا المحلي على مــدار رحلته دائما ملتصقا بالقضايا الســاخنة اللاهبة التي كانت تحتــل المركز الأول لدى القارئ فتثيــره وتجعله يتحمس لهذا الأدب الذي يراه عاكســا لهمومه وتطلعاته وآماله. أما اليوم، فهو يرى إلى أن الأدب قد خان الرسالة وابتعد عن هذه القضايا. هذا الادعاء الذي يرفعه بعض القراء على جانب كبير من الخطأ، وذلــك لأن أدبنا ما زال ينــاور على نفس المحاور وما زال مجاله الأنطولوجي مقلصا. لكن الذي حدث هو أن هذا الأدب قد رفع من مســتواه وصار يوظف الكثير من الوسائل الفنية التي تجعله يلامس القضية تلميحا لا تصريحا، ترميزا لا مباشــرة. وهذا الأمر، بقدر ما فيه من حــق وصدق، لأن الأدب أي أدب مفروض عليه أن يتطــور ـ وهو أمر فني بحت -، بقدر مــا جعل القارئ يقف أمام أدب لم يألفه ولم يعتد عليه في الســابق. لذا صار إذا سئل عن هذا الأدب يجيب أنه أدب مبهم/مســتغلق/غير مفهوم! ثم يشرع بالاستشهاد بقصائد محمود درويش الستينية مثلا ويقارنها مــع قصائده اليوم فكأنه يأبــى على محمود درويش وعلى غيره التطور الفني، ويريد له التقوقــع والانتصار لنفس النموذج. من هنا إذن، صارت القطيعة عندهم مع أدبنا وكأننا نعود إلى نفس مساءلة "أبي تمام" الخالدة. وهكذا وبسبب ما ذكر أهمل هؤلاء القراءة وخســروا بذلك الجانب الإنساني الهام في حياتهم، لا بل الأهم.

عوامل داعمة للقراءة

وقضيــة يجب أن نقف عندها والتي تســاهم هــي الأخرى في الابتعــاد عن أدبنا المحلي هي قضية وصول الكتاب إلى القارئ، وبســبب صعوبة وصــول المؤلف إلــى كل بيــت، ينحصر هذا الكتاب بين قلة قليلة من القراء، الأمر الذي يضرّ المؤلف والقارئ معا. وعدا الأمرين الســابقين تظل هناك قضية في غاية الأهمية لم نتطرق إليها لغاية الآن وهي قضية وزارة المعارف وما يتعلق بها من أمر مناهج التدريس وأهداف التعليم وما إلى ذلك.

وبدايــة أقــول أنني لا أبغى هنــا التجني بل ســأحاول أن أكون موضوعيــا في رأيي. فالهدف الذي يجب على وزارة المعارف أن تضعــه اليوم نصــب أعينهــا، إذا أرادت فعلا أن تطــور التعليم العربي، هو الارتفاع بالإنســان إلى إنسان قارئ/ باحث مستقل. وباعتقــادي أن مهمــة التعليم لــم تعد كما في الســابق، مهمة تلقينيــة، بل عليها أن تصبح مهمة ترى وتســعى إلى خلق جيل مســتقلّ مثقف يتعلم الأدوات ويطورها ليجيد اســتعمالها فيما بعــد. مهمة التعليم صارت إذن بناء إنســان مثقف قارئ يفتش بنفســه عما يريد. من هنــا يتوجّب على الــوزارة تغيير طرائق التدريس المعمول بها، وتغييــر المناهج كي تتلاءم جميعها مع هــذا الهدف. فهل هذا هــو الحاصل؟ الحقيقة تشــي بالعكس. صحيح أن الوزارة أغرقت الوسط العربي بساعات التعليم ولكنها ســاعات لم تخطط لهــا بالمرة وكانت بذلك اشــبه بالذي يربط العربــة أمــام الحصان، كان علــى الوزارة أن تهيــئ المعلم قبل الســاعات، وأن تســعى إلى تحديث المناهج، أيضــا. ولكن مع مناهج غثة ومع تقليص عدد ســاعات تعليم اللغة العربية ومع نصــوص أدبية مكرورة، يولد الســؤال الكبير، هــل يمكن بهذه الإمكانيــات أن نؤصل عادة القــراءة وأن نحببهــا لطلابنا؟! هل يمكــن للنصــوص الموجودة أن تقرب الطالــب إليها؟ وهل هي تعكــس بصدق أدبنا؟ إن نظرة ســريعة إلى كل ذلك تشــي بأن معظمهــا بعيد عــن عالم القارئ وعــن اهتماماتــه، لذلك نراه يتعامل معها كمادة جافة دون الانجذاب إليها. وطالب/ قارئ لا ينجذب إلى نصّ معين يشكل نموذجا لقضية أخرى تعتبر جانرا أدبيــا مهما كيف له أن يرغب القــراءة وأن يتابعها! كيف له أن يحب أدبنا/أدبه وأن يعشــقه؟ وإذا راقبنا مدارســنا وتفحّصناها وســألنا المسؤولين كم من الوقت يكرّس للمطالعة الذاتية الحرة أو الموجّهة، ســيكون الجواب: النزر اليسير وذلك بسبب ضغط المــواد الأخرى كما يدعّون. ومــع العلم أن الوزارة تنادي وتفخر بموضوع الوعي القرائي والإبداع فمتى سيســتمر هذا المشروع ومتى فعلا ســنصبح شعبا قارئا لا ماقتا للكتاب؟! مسؤولية كبيرة تقــع على الوزارة، إذ عليهــا أن تبحث كي تجد الطريق الصحيح الــذي يُمكننا من زرع حب القراءة وتجذيره. فنحن لا نريد جيلا تاجرا للعلامات بل نريد جيلا مثقفا يقرأ ليعرف ويعرف ليتطور.

وإذا أردنــا التطرق إلى النصــوص المحلية الموجودة في مناهج التدريس اليوم نجد أن المشــكلة أو الأزمــة تتفاقم، إذ أن هذه النصوص، على قلتها، لا تعكــس حقيقة أدبنا المحلي ولا تحبّب طلابنا به. حتى هذه النصوص المنتقاة لبعض الأســماء المحترمة لا تعكس أدبهم ولا تمّثل مراحل تطوّره.

والقضايا النابعة عن مســؤولية وزارة المعارف ، والتي لها علاقة بأزمــة القراءة كثيرة نكتفي منها بما أوردناه ونعرض عن الأخرى وذلك لضيق المجال.

إذا، التخصصات المحصورة بأدبياتها وعدم مواكبة المســتجدات على الســاحة الأدبية/ الفكرية، وعدم وصول الكتاب إلى القارئ ومناهج التعليم وســاعاته، كلها مسائل ساهمت في وجود أزمة قراءة، كما ســاهمت في ابتعاد القــارئ عما يكتب عندنا. ولكن هل بهذا الأمر تصل المشكلة إلى حدّها النهائي؟!

لا اعتقــد ذلك، إذ هناك بعد الكثير لنقوله. ختاما للحديث تظل أمامنــا قضية واحدة لم نتطرق إليها رغــم أهميتها، وهي قضية دائرة الثقافة ودورها في نشر الكتاب المحلي.
نثمّــن دور هــذه الدائرة في هــذا المجال، وذلك لأنها تســعى جاهدة إلى نشر الكتاب المحلي. وللحقيقة الموضوعية أقول: إن عددا كبيرا من الكتب المحلية ما كان باســتطاعته أن يرى النور لــولا الدعم الذي تقدّمــه الدائرة. ولكن بالرغــم من هذا الدور الجميــل والقيّم، تظــل هناك مشــكلة يجــب أن نتعامل معها بمنتهى الجدية، هذه المشــكلة هي مشــكلة نشر الأدب الغث واختلاطه بالأدب الســمين. إذ مع غيــاب حركة نقدية تغربل ما ينشــر بحيث تؤشــر على الجيد وتشجعه، وتشــير إلى الرديء وتحذّر منه، ومــع غياب لجنة متخصصة تفحص هذا الأدب قبل نشــره وتنتقي منه الملائم، تظهر على الساحة الأدبية كتب دون المستوى شعرا ونثرا، الأمر الذي يجعل القارئ ينفر منها، ويجعله يسحب نظرة ســلبية على كل ما ينشر عندنا، وهذا ليس منصفا طبعا، إذ هناك كتب محلية كثيرة تســتحق القراءة فهي تضاهي بمستواها مستوى الكتب العربية الأخرى وربما تفوقها. من هنا أرى إلــى أن تعتني هذه الدائرة في المســتقبل أكثر بنوعية ما ينشر، إذ ليس الكمّ هو الذي يقرر بقدر ما هو الكيف.
ثم قضية الميزانية المخصصة لنشــر الكتاب المحلي هي ميزانية تبدو ضئيلة، إذا قارناها مع الوسط اليهودي.

بعد هذه الوقفة التي طالت نعود إلى مســاءلتنا الأساســية التي بدأنــا بها والتي فتقــت كل هذا الحديث. هل هنــاك فعلا أزمة قراءة محليــة؟ الإجابة عن ذلك بـ: "نعم"، رغم ما فيها من حرقة ولعل الأســباب التي ذكرتها - وهي كثيرة - تؤكد على ذلك، بدءا بمستوى الكتاب وأزمة توزيعه وانتقالا إلى منافسة وسائل الإعلام خاصــة المرئية منها، ومــرورا إلى القطيعة التي حدثت بســبب التخصصــات ومناهج التدريــس وطرقه وانتهــاء باختلاط الغث بالســمين. كل هــذه الأمــور مجتمعــة أدت إلــى خلــق الأزمة وســاهمت في تعميقها، ونحــن إذا نظرنا بجدية إلى هذه الأزمة نجد كم هي خطيرة تهدد حياتنا الثقافية والحضارية ومســتقبلنا العلمي والفكــري. ولكونها بمثل هذه الخطــورة علينا- إذا أردنا التطــور- أن نتجند جميعا وبســرعة لتطويقهــا ومحاصرتها قبل تفاقمها. كما علينا أن نسعى جاهدين للتغلب عليها خاصة ونحن مقبلــون على فترة انفتــاح على العالم العربي الكبير والواســع. ويظل الســؤال، كيف؟ بمعنى، كيف يمكــن لنا أن نطوق الأزمة ونتغلــب عليهــا؟ بداية أقول أنا لا أملك وصفة جاهزة نســتطيع بواسطتها أن نبحث المشكلة بين ليلة وضحاها، ولكنني رغم ذلك سأحاول طرح بعض الاقتراحات التي في رأيي تساهم في التغلب عليها وهي اقتراحات قابلة حتما للنقاش وللزيادة والحذف.

خاتمة وتوصيات

أقــول بدايةً: إنه بقــدر ما في هذه الأزمة مــن خطورة بقدر ما يجب أن يكون العمل على اجتثاثها جادا. هناك أسباب تتعلق بنا كشــعب ومن ثم كأدباء نســتطيع الســيطرة عليها، وهناك أمور تتعلق بالمؤسســة خارجة عن نطاقنا، ولنبدأ بالأسباب المتعلقة بنا.

أولا ـ علينا، إذ أردنا التغلب على هذه المشــكلة، أن نحترم لغتنا وتراثنــا وأدبنــا، وأن ننظر إلى ذلك كواجــب وطني من الدرجة الأولى. مقارنة بســيطة مع الشــعوب الأخرى تشي بأننا لا نفعل ذلــك بما فيه الكفاية، بل دائما نرانا نهزأ بأدبنا وبأدبائنا ونحاول جلد أنفسنا وإسقاط مشاكلنا على هذا الأدب. وبنظرة طائرة إلى الــوراء قليلا، نجد أننا وعلى مرّ العصور امتلكنا تراثا هائلا نفاخر به الدنيا، وما زلنا نمتلك اليوم أدبا راقيا يفوق بتقنياته وأســاليبه وفنيتــه ومضامينــه الكثير مــن الآداب، إذا لماذا هــذه النظرة الســلبية إليــه؟ بالإضافة إلى ذلــك، فإن أدبنــا المحلي هنا هو هويتنــا الحضاريــة والثقافية الذي لولاه لكنــا اليوم نعيش على هامــش الحضارات والثقافات الأخرى. ومــن هنا علينا أن نحترم هذا الأدب وأن نقدّم لــه الدعم وأن ننظر إليه نظرة احترام وأن نبــذل قصارى جهدنا كي يكون مقــروءا. وما ينطبق على الأدب ينطبــق على الأدباء أيضا، فهم مهندســو أرواحنا، وبقدر ما يقع عليهــم من عــبء ثقيل في حمــل الراية، بقدر مــا يجب علينا تثميــن دورهم واحترام إنتاجهم، فشــعب لا يحترم أدبه وأدباءه هو شعب لا يستحق التطور أصلا.

ثانيا ـ دور هام أراه لمؤسســاتنا الوطنية. على عاتقها مســؤولية كبيرة في رفع شــأن هذا الأدب وذلك بدعمها المادي والمعنوي له. فأدبنا هو الشــهادة الناصعة على صمودنا وتطورنا، من هنا، فلــو اعتنت كل ســلطة محلية أو مؤسســة بأدبائها وشــجّعتهم وفتحــت لهم المجال ويسّــرت الطرق لراجت فــي مدننا وقرانا حركة أدبية/ فكرية نشــطة تكون هي وحدها القادرة على الفرز والقادرة علــى خلق مناخ ملائم يحبب الناس بالقراءة والمتابعة ويجعل القراءة عادة متأصلة فينا. ينضاف

ثالثا ـ المر ذاته ينســحب على دور النشــر المحلية. فعليها هي الأخــرى يقع دور كبير وذلك في توزيع الكتاب المحلي وإيصاله للقارئ. فمع حركة توزيع نشــطة منظمة يدخل الكتاب الى كل بيت ويصبح عامل جذب للقراءة والمناقشة.

رابعــا ـ للبيت دور حاســم يلعبــه. فأمام الوالدين مهمة شــاقة ولكنها ليســت مســتحيلة تقع عليهما مســؤولية تنظيم الوقت

لأولادهــم منذ الصغــر، عليهم أن يزرعوا ذلــك فيهم مبكرا كأي عادة مكتســبة أخرى. لأنــه إذا اعتاد الولــد الصغير على وجود الكتاب في بيته وإذا اعتاد القراءة وإذا عرف أن لها وقتا معينا لا بل مقدســا مــن يومه، نكــون قد وصلنــا إلى الهــدف وجذرنا المطالعة فيه وأصّلنا القراءة.

خامســا ـ بالنســبة لما أشــرنا إليه ســابقا فيما يخص دور وزارة المعارف، فالوزارة هي المســؤولة أولا عن تحبيب الطالب بأدبه وبتراثــه. ومع غياب هذا الــدور أرى إلى أن تكــون هناك هبة شــعبية، بالوســائل المشــروعة طبعا، وعن طريق المؤسســات واللجان المختصــة تطالب بتحديث المناهج والنصوص وبزيادة ســاعات تعليــم اللغــة العربية في مدارســنا أســوة بالمدارس اليهوديــة، والمطالبة بتغيير طرائق التدريــس التي باتت منفّرة للطالب، وبوضع أهداف أساسية ترمي إلى خلق جيل قارئ، هذا بالإضافــة إلى تأهيل معلمين أكفاء لتدريــس لغتنا وأدبنا، وإلى تكريس ساعات للمطالعة والإبداع. وبالتالي على هذه الوزارة أن تعترف بأدبنا وأن تجعله وحدة تدريســية إجبارية في مناهجها، وحــدة مســتقلة تقرّب طالبنا مــن أدبه ومن تراثــه ومن لغته، وتجعله يُقبل على قراءة كل ذلك بنهم، تماما كما هو حاصل عند كل شــعوب العالــم. علــى وزارة الثقافة أن ترصــد الميزانيات الملائمة لتطوير مثل هذه السياسة.

وأخيــرا، إذا تم كل ما ذكرناه، وإذا تكاتفنــا جميعا، أدباء وأهلا، ومؤسســات، ولجانا، ودور نشر، نستطيع أن نشكل وسيلة ضغط لإحداث التغيير الجوهري المطلوب، عندئذ نستطيع أن نرى إلى مســتقبل أجمل، إلى مســتقبل تكون عادة القراءة فيه متأصّلة أساسية. عندها فقط نستطيع أن نقول: نحن شعب يسير بخطى ثابتــة نحو الأفضل ونتطور إذ أننا نملك جيــلا قارئا محبا للعلم، باحثا، يســعى إلى رفع مســتواه بما يكتنزه من معرفة وفكر من خلال قراءاته المتواصلة.

هــل هي أمنية صعبة المنال؟ لا اعتقد، بل إن ما اعتقده هو إننا شعب قادر على ذلك، لا بل على أكثر من ذلك.

ملاحظة: نص المداخلة التي قدّمت في مؤتمر الحقوق الثقافية الذي نظمته جمعية مساواة في 15/10/2010.